

اوائل التشريعات

في الاسلام

لمحمد عبد النبي حسن

كان الصحابة بعد عصر الرسول يقضون بالأحكام اتقوية تبعاً لأحكام القرآن وأفعال النبي وأقواله ، فلم تكن هناك حركة فقهية بالمعنى العلمي المعروف : ولكنهم كانوا يقضون بالاجتهاد والرأي واتباع الرسول تبعاً لأحوال البلاد المفتوحة بشرط ألا يتعارض قضاءهم مع الكتاب والسنة الصحيحة ، وأن يبنى على أساس القواعد العامة فيها .

ولم يكن الصحابة على حال واحدة من الفقه والقضاء بعد وفاة النبي عليه السلام ، بل اختلفت أحوالهم تبعاً لاختلاف علمهم وشجاعتهم الأدبية وطول ملازمتهم للرسول . ولكننا لا نجد بينهم أمضى في الفقه من عمر بن الخطاب . فكان يضي فيه على اجتهاد ورأي ومعرفة . ونقد تمت على يديه بعض مبادئ في الفقه كالشدد في الرجم ، والحد في الحر وصلاة التراويح جماعة ، والنهي عن التمتع في أشهر الحج . وهي مبادئ تدل على اتساع نظر هذا الخليفة الفقيه ، وعلى جرأته . كما حدث في عقوبة الرجم في الزنى ، فقد تشدد في تنفيذها وأوصى بها . واستدل بما سمي هو وغيره من الصحابة من رسول الله وبما رآوه من صلبه : فقال عمر : — (لقد خشيت أن يطول بالناس زمان حتى يقول قائل لا نجد الرجم في كتاب الله فيضوا بترك فريضة أنزلها الله . ألا وأن الرجم حق على من زنى وقد أحصن اذا قامت البيعة أو كان الحل أو الاعتراف ؛ ألا وقد رجم رسول الله وزوجنا بعده)^(١) . ولم يخالف في الرجم إلا بعض الضواجر وبعض المعتزلة ، ثم استقر اجماع المسلمين على وجوب الرجم

أما حد الحر فهو عند عمر ثمانون جلدة ، وقد كان العمل قبله يجري على خلاف ذلك . فقد كان الشارب في عهد النبي وأبي بكر وأول عهد عمر يضرب بالأبدي والنعال والآردية^(٢)

(١) رواه البخاري وغيره (فتح الباري ١٣ : ١٢٦ — ١٢٧)

(٢) صحيح البخاري — كتاب الحدود

قبل مر حده أربعين جلدة ثم زاده اثنى عشرين . ويُعدُّ عمل عمر في هذا من باب التعزير ، وقد أُلِّهَ إليه حدة الحاجة إليه لانهالك الناس في الشراب .
 أما جمع الناس على التراويح في رمضان . فقد ورد (عن عائشة أن النبي صلى في المسجد فصلي بإصلاته ناس ، ثم صلى الثانية فكثرت الناس ، ثم اجتمعوا من الليلة الثالثة أو الرابعة فلم يخرج إليهم رسول الله ، فلما أصبح قال : رأيت الذي صنعتم فلم يمنعني من الخروج إليكم إلا أني خشيت أن تقترض عليكم ، وذلك في رمضان)^(١)

فلما جاء عمر خرج فرأى الناس اوزاعاً يصلون في المسجد لجمعهم على صلاة التراويح ولعلَّ شخصية عمر القوية وقوة عزيمته كانتا أفضل الأسباب في أخذ الناس بما لم يألفوه في عهد الرسول والصديق . فلم كان غير عمر ما استطاع أن يتحدث في الاسلام ما لم يحدث في عهد سلفيه . إلا أنه جمع الى صفة الامام الحاكم صفة التقية الشترع . وكانت هذه الصفة أكبر عون له على مواجعة الناس بما لم يمهده في عهد الرسول ولقد عدَّ بعض الناس عمله هذا بدعة جديدة في الاسلام ، ولكنه هو ثقة رده عليهم في ذلك رداً حاسماً . فإنه لما رأى الناس في المسجد مجتمعين حول أبي بن كعب يصلي بهم التراويح قال : « نعمت البدعة هذه ! » . والبدعة هنا هي الجماعة في التراويح ، فقد امتنع النبي عليه السلام عنها خشية أن يشق على أمته بافتراسها عليهم . والبدعة هنا كذلك هي زيادتها الى عشرين ركعة . وقد كان النبي لا يزيد في النفل على إحدى عشرة ركعة^(٢) ولم يكن عمر رضي الله عنه يحكم في الأمور استبداداً برأيه ، بل كان يشاور الصحابة وينظرهم حتى ينكشف وجه الحق . ولهذا وجدت فتاويه من السنين صدراً رحباً وقبولاً كثيراً ، فلم يتخرجوا بها ولم يضيقوا . على خلاف علي كرم الله وجهه الذي كان يتأبمه أهل الكوفة . وكان عند عمر من الرواة الفقية ما يجعله فقيهاً بطنه وكان للرأي والاجتهاد عنده اعتبار كبير ويشبهه في ذلك عبد الله بن مسعود الذي كان يسلك طريقته ويتعصب لمذهبه حتى قال : — (لو سلك الناس وادياً وشعباً ، وسلك عمر وادياً وشعباً . سلكت وادي عمر وشعبه) . وبلغ من ثقة عمر فيه أن أرسله الى الكوفة ليعلم أهلها ويفقههم ، وقال لهم : لقد آثرتمكم — بئد الله — على نفسي : ولم تكن حياة ابن مسعود في الكوفة اخلاذاً الى السكن وركوناً الى البدعة . بل كثيراً ما ملأها بطنه ومناظراته وفتاويه

(٣) روى البهاري وسائر وغيرهما . نيل الاوطار ٣: ٦١

(٤) نيل الاوطار للشوكاني طبع سنه اثنى عشر ١٤٠٣ هـ

وهناك فقيه رابع من فقهاء الصحابة وأعلمهم وأجدرهم بالتصدر للفقهاء والقضاء . هو زيد بن ثابت . وثاني منزلته في الفقه من طول ملازمته للنبي عليه السلام وكتابته الوحي . وقد استاز بالأمانة في النقل والتعمق في الفقه ، ولهذا وثق به عمر واستخلفه في كل سفر . ولقد فرق عمر الناس في البلدان واستبقى في مدينة الرسول زيدا ، فهو أثير عنده قريب منه . يرجع إليه في الدامض ، ويستشيره في الأمر العارض ، ويقدمه على كبار الصحابة ولا يتقدم واحداً منهم عليه . وكذلك كان مع الخليفة عثمان وقد شهد له سعيد بن المسيب أزكى شهادة (١)

أما عبدالله بن عباس فقد كانت له في الفقه قدم راسخة . شهد له الكثير بالعلم والفقه والتطلع من العربية والتكلم من الشعر والقلم لكتاب الله والتثبت من الحساب والقرآن (٢) . وكان عمر يعظمه ويحمله لا لقرابته من رسول الله عليه السلام ، ولكن لعلمه وفضله

وهو أحد الستة الذين هم أكثر رواية عن النبي ، وهم أبو هريرة وابن عمر وجابر وابن عباس وأنس وطائفة . وإذا اختص أنس وأبو هريرة بالرواية فقد جمع ابن عباس إليها الفقه والعلم . فهو من أوائل فقهاء الإسلام . وكان لزيارة علمه يقيم في مكة فتشدد إليه الرسل ويقصده الطلاب من جميع الاقطار

وكان هو وابن مسعود وزيد بن ثابت الثلاثة الذين يقوم الصحابة بقولهم في الفقه ويستدلون بكلامهم

وقد شهد له العلماء جميعاً بزيارة العلم والتبحر فيه . ومن ذكره منهم علي بن المديني ، وسفيان بن عيينة ، وعبدالله بن طاهر والأزرقي صاحب كتاب مكة . وله غير ذلك أخبار طوال في كتب التاريخ والطبقات

وإذا صح أن النبي عليه السلام توفي وعمر ابن عباس ثلاث عشرة سنة في رأي ، أو خمس عشرة سنة في قول ابن حنبل — إذا صح ذلك كان عجيباً أن يعد ابن عباس من أكثر الصحابة رواية للحديث . وموضع العجب أن تسمح له حدانته منه بحفظ قدر من الأحاديث يفتق في مصنف السنة الكبار من رواة الحديث . ولكن العلم لا تمنع منه حدانته ، والفضل لا تقف دونة طراءة السن . وقد بدأ قال الشاعر : —

(١) الجزء الخامس ، تهذيب تاريخ ابن عساکر

(٢) تهذيب الاسماء والفتوح للنوري الجزء الأول مادة عبدالله

فما الحدائق من حلم جماعة قد يظهر الحلم في الشبان والشباب

*

وهناك عند ابن عمر ، ولكنه يختلف عن ابن عباس . وابن عباس كثير الرواية كثير
الفتوى ، وابن عمر قليل الكلام قبل الفتوى . ولكن اقلاله من القول والفتوى لم يمنع من
قيمه التقية . فهو يقيم بالمدينة ويعد عليه الوفود من الناس بغية الاضراف من طعه

*

وتسام الاقدار السميدة أن يكون للمرأة بلصة حظ المشاركة في الحركة التقية القائمة
في مكة والمدينة وغيرها بعد وفاة الرسول . فليس التقه خاصاً بالرجال ولا وقتاً عليهم
وخاصة اذا كانت المسائل التقية تتعلق بأحوال المرأة وما يمرض لها وما يكون في بينها .
فترى السيدة عائشة تشترك مع الرجال في رواية الحديث . وتراعى من السنة الأكثر رواية
لحديث رسول الله عليه السلام ، وترى خلقاً كثيراً من الصحابة والكاتبين يروون عنها .
وبقيت في المدينة بعد اليها السائلون من صحابة الرسول فتجيبهم ، وخاصة في الفرائض .
ولم يصح أنها دخلت الشام ^(١)

*

هؤلاء السبعة هم أكثر الصحابة اشتغلاً بالتفه بعد وفاة الرسول . وكان عمر أعجمهم
في هذا . فلم تشغله الخلافة عن الفقه . وهو في أحكامه وحب الصدر لا يضيق بالنقد كما
يفعل ضيقو المطن . وقد يخطئ في مسألة فيمترف بالخطأ ويقول : أصابت امرأة
وأخطأ عمر . ويكتب كتاباً في مسألة « الكلالة » في الميراث ثم تحضره الوفاة ، فيسحر
الكتاب ويقول لأصحابه : - (ترون في الكلالة رأيكم) ..

وكان من الطبيعي أن يحدث اختلاف بين فقهاء الصحابة في بعض المسائل ، وهو
خلاف لا يرجع الى صلب الدين الإسلامي نفسه ، فذلك ما لا يقول به منصف ، ولكن
مردده كان ان فهم الفقهاء ، والى اختلاف البيئات ، والى تفرق الصحابة في الامصار فكان
كل منهم يفتي بما رآه عن النبي أو سمعه ^(٢) ، والى تأخر تدوين الحديث
ولكن هذا الخلاف كان فيه بعض الخير ، ان لم يكن فيه الكثير منه . فقد كان
تمهيداً لمدارس الرأي التي ظهرت بعد ذلك ، والتي كان الجدال بينها مشهداً من مشاهد
الحركة الفكرية في الاسلام

(١) تهذيب الاسماء والصفات ج ١ مادة عائشة ٢١ . الاحكام في أصول الاعتقاد لابن حزم ج ٢